جهود الإمام أبي الأعلى المودودي في تفسير القرآن الكريم

محمد علي غوري*

حياته وعصره:

حين شب الإمام أبو الأعلى المودودي عن الطوق، ووعى معنى الحياة، أدرك الحملة الشرسة على الإسلام، التي لم تسلم منها حتى الخلافة العثمانية التي كانت رمزاً لوحدة العالم الإسلامي، والأمل الأخير في لم شمل الأمة الإسلامية بعد أن دب فيها الضعف، ونخر بها السوس من كل ناحية، فكان سقوطها عام 1924م.

كان العصر الذي عاش فيه الإمام المودودي- المولود عام 1903م- عصر التحديات للإسلام وللمسلمين، إذ ظهرت المخططات الاستعمارية الرهيبة، وكان من نتائجها أن سيطر المستعمرون على العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، وكان ذلك تمهيداً لغزوه فكرياً وحضارياً. وفي المقابل بدا العالم الإسلامي -الذي ظل يقود البشرية لقرون طويلة- متهافتاً متهالكاً لتركه العمل بكتاب الله الذي يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين.

هزت حادثة سقوط الخلافة العثمانية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، فتحرك العلماء والمصلحون من كل حدب وصوب يطالبون بعودة الإسلام إلى جميع مرافق الحياة، وقامت حركات إصلاحية تنادي بتطبيق الإسلام والشريعة الإسلامية في ظل تعاليم القرآن الكريم. ومن هؤلاء الإمام المودودي الذي انبرى لهذه المهمة العظيمة في وقت اشتدت فيه الحملة على الإسلام من كل جهة، حيث شحذ اليهود والنصارى سكاكينهم للقضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية. ومن ناحية أخرى عمل الهندوس على القضاء على كل ما له علاقة بالإسلام في شبه القارة الهندية، وكان المتصوفة المزيفون والمنحرفون عن كتاب الله وسنة رسوله، والذين ضلوا الطريق، يخدعون الناس بكراماتهم وبكشوفهم وخرافاتهم، صارفين الناس عن المشاكل الحقيقية، الأمر الذي زاد من ضعف المسلمين في مواجهة الأخطار الخارجية التي كانت تهددهم بعنف.

رأى الإمام المودودي أن القرآن أُبعد عن حياة الناس لزمن طويل، لذا فقد أثره فيهم، وأن الحل يكمن في الدعوة إليه، ونشر تعاليمه بين الناس. ولم يكن الإمام المودودي وحده في الساحة، فقد كان هناك آخرون في مختلف بلاد المسلمين وخاصة في مصر وفي شبه القارة الهندية، سبقه بعضهم أمثال الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، والبعض الآخر كان في عصره أمثال الشيخ حسن البنا -مؤسس جماعة الإخوان المسلمين- والعلامة محمد إقبال الذي دعا إلى التمسك بالقرآن عن طريق أشعاره الجميلة باللغتين الفارسية والأردية، والتي فسر بها القرآن، ونبه الأمة الإسلامية -وخاصة الشباب- إلى زيف الحضارة الغربية بعد أن عرفها عن قرب.[1]

وسط هذه الثلة المدافعة عن الإسلام والحامية لبيضة الدين، لم تعد كلمة المودودي مقصورة على شخص واحد، بل أصبحت علماً على فكر وفلسفة كاملة للحياة، علماً على الفهم الصحيح للدين، وعلى التمثيل الحي له، كل ذلك بمواقفه وآرائه التي أثبت الزمن صوابها، أصبح المودودي علماً على الحركة الإسلامية بمفهومها الشامل، التي تستمد وجودها وكيانها واستمرارها من كتاب الله العظيم.

---

* أستاذ مشارك كلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية العالمية إسلام أباد، باكستان.

إذا أردنا أن نصف الإمام المودودي بكلمات موجزة فنستطيع أن نقول إنه كان كاتباً متميزاً وأديباً بارعاً وعالماً في الدين وداعية عظيماً وقائداً حكيماً. قاد حركة من أكبر الحركات الإسلامية في ظل أحلك الظروف وأصعب الأوضاع، كما كان مصلحاً اجتماعياً يهتم بأمر المسلمين ويعالج الأمراض التي استشرت في المجتمعات الإسلامية عامة وفي مجتمع شبه القارة الهندية خاصة، كل ذلك بروح القرآن الكريم.

تلقى الإمام المودودي تعليمه الابتدائي على يد والده السيد أحمد حسن مودود، ثم أكمله في مدينة أورنك آباد، المدينة التي ولد فيها، وهي من مدن ولاية حيدر آباد التي تسكنها أغلبية مسلمة، وكانت أسرته معروفة بالعلم والزهد والتقوى. يعود نسبه إلى الشيخ قطب الدين مودود أحد الشيوخ الكبار في الطريقة الجشتية، وهي من أكبر الطرق الصوفية في شبه القارة، وأقربها إلى كتاب الله.[2]

بعد إكمال دراسته ارتقى سلم الحياة ممتهناً الصحافة التي اتخذها وسيلة لنشر أفكاره وآرائه، ولم يجعلها غاية. بدأ الإمام المودودي يكتب مقالات في الصحف الأردية الرائدة منذ عام 1918م، أي وهو في الخامسة عشرة من عمره، وفي عام 1920م أي وهو في السابعة عشرة من عمره عين محرراً في مجلة تاج، وهكذا تنقل بين كبريات الصحف والمجلات التي كانت تصدر في الهند آنذاك، كما ترجم عدة كتب من اللغة العربية والإنجليزية إلى الأردية.[3] عاش حياته مجاهداً ضد الاحتلال البريطاني ومواليه، مستهدياً بهدي الأنبياء والصالحين المذكورين في القرآن الكريم، أمثال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والرسول محمد عليهم الصلاة والسلام. لذا سنلاحظ ربط الإمام المودودي في تفسيره "تفهيم القرآن" قصص الأنبياء عليهم السلام بمراحل الدعوة التي مرت بها تقريباً كل الحركات الإسلامية في مختلف بقاع العالم.

دعوته:

بدأ الإمام المودودي يدعو الناس إلى التمسك بكتاب الله وبسنة رسوله بإصدار مجلة "ترجمان القرآن"، وكانت المجلة حقاً اسماً على مسمى، فقد كانت ترجماناً للقرآن الكريم ومبلغة هديه القويم وتعاليمه السمحة إلى الناس. كان للمجلة دور عظيم في تقريب الناس من كتاب ربهم، حيث عمد الإمام المودودي إلى تبسيط فهم القرآن لهم، وشرحه بأسلوب سهل سلس مترابط تدركه أذهان الخاصة والعامة في نفس الوقت، ونتيجة لهذه الدعوة اجتمع بعض المصلحين –ممن يهمهم أمر هذه الأمة وممن ملأت تعاليم القرآن عقولهم ونفوسهم– من طول البلاد وعرضها ليضعوا أيديهم في يد الإمام المودودي، وليضعوا بالتالي حجر أساس حركة "الجماعة الإسلامية"، واختاروه أول أمير لها، وكان ذلك في عام 1941م.

تعرض الإمام المودودي في سبيل دعوته إلى القرآن للسجن عدة مرات، وفي عام 1953م حكم عليه بالإعدام، أيام الحكم العسكري للبلاد لتأليفه كتيباً بعنوان "القضية القاديانية"، وقد عدّل الحكم إلى السجن المؤبد نتيجة ضغوط شعبية كبيرة، ثم إلى ثلاث سنوات.[4] لاقى الإمام المودودي وأصحابه صعاباً كثيرة في سبيل دعوتهم، ولكنهم صبروا وصمدوا صمود الجبال الشم حتى أثمرت جهودهم العظيمة، وتكللت بالنجاح، وتمخضت عما نراه اليوم من انتشار حركة الجماعة الإسلامية وأفكارها في كل أنحاء العالم.

تميز الإمام المودودي بصفات كثيرة أهمها تواضعه الجمّ، وحلمه الكبير، وكان يعرف كيف يستغل طاقات أفراد جماعته في الخير، فكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهكذا كسب ثقة جميع أفراد جماعته،

وحاز رضاهم. وكان وقافاً عند الحدود التي رسمها الله لعباده في القرآن. وقد قدم الإمام المودودي تضحيات كبيرة من أجل دعوته، فرغم أنه لم يكن يملك بيتاً ولا عقاراً ولا مالاً فقد تبرع بحقوق طبع أكثر كتبه ونشرها –وقد تجاوزت المائة كتاب– للجماعة الإسلامية، وكانت هذه الكتب تدر على الجماعة مبلغاً لا بأس به تستخدمه في أعمال الدعوة إلى الله، وهذا عدا تضحيته بوقته ونفسه وصحته.[5]

أدرك الإمام المودودي أهمية القرآن في حياة المسلمين عامة وحياة الدعاة خاصة، فعمل على تفسيره على حلقات في مجلة ترجمان القرآن، متبعاً في ذلك سنة السلف الصالح حيث كان الصحابة يتعلمون من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات من القرآن لا يتعلمون ما بعدها حتى يعملوا بها.[6] فالعمل بالقرآن بعد فهمه هو الذي رفع الصحابة رضوان الله عليهم من قبائل متحاربة متناحرة لا شأن لها إلى مصاف أمة من أعظم الأمم في العالم قاطبة، فقد سادوا العالم بالقرآن، ونحن خبنا وخسرنا بتركنا للقرآن. تعلم الإمام المودودي هذا الدرس ووعاه جيداً، فانطلق في دعوته من القرآن الكريم، يشرح دقائقه ويبسط مفاهيمه، فلا غرو بعد ذلك أن سمّى تفسيره بتفهيم القرآن، ويقصد تفهيمه للناس. فالقرآن لم ينزل ليقرأ على الأموات وفي المناسبات، ولا ليوضع على أرفف العالية في المساجد والبيوت، فلا تطالها الأيدي، ويترك هناك ليعلوه الغبار! وإنما نزل ليفهمه الناس، ويطبقوه في حياتهم أفراداً وجماعات ودولاً.

جهود الإمام المودودي في المجالات المختلفة:

للإمام المودودي جهود جبارة في مجالات الحياة المختلفة؛ الفكرية والعملية. في مجال التربية والدعوة ونشر الفكر الإسلامي وبيان مزايا الإسلام والدعوة إلى إقامة النظام الإسلامي، والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وأسلمة الدستور الباكستاني والقوانين والعلوم والفنون، ومحاربة الأفكار المنحرفة والفرق الضالة كالقاديانية والبهائية ومنكري الحديث وغيرهم، والمحافظة على شعائر الإسلام وتعظيمها، وقد قام بتأليف كتب كثيرة نيفت على المائة، عرض فيها الجوانب المختلفة للإسلام، كالجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية وغيرها منطلقاً في ذلك كله من القرآن الكريم.

عرض الإمام المودودي الإسلام بأسلوب عصري ولكن مع المحافظة على أسسه وأصوله كما هي، وفتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً فترة طويلة من الزمن، وبهذا حرك الجوامد، فاستعدى بذلك كثيراً من العلماء في شبه القارة، فوقفوا ضده وضد حركته الإصلاحية القرآنية، حتى وصل بهم الأمر إلى تأليف كتب ضده ما زالوا يتداولونها بينهم حتى اليوم، وحاربوه من على منابر المساجد، لأنه حاربهم فيما اعتادوه من الكسب غير الحلال أو غير المشروع عن طريق الضحك على عقول العامة من خلال تصويرهم للإسلام كما يريدون، لا كما يريده الله سبحانه وتعالى. وقف ضد الإمام المودودي وأفكاره نوعان من الناس؛ العلمانيون من منطلق محاربة الدين، وهؤلاء الشيوخ المتعصبون المتشددون انطلاقاً من أفقهم الضيق. أما الإمام المودودي فقد شرح الإسلام صافياً، ناهلاً من نبعه الرقراق وهو القرآن الكريم، فحاول أن يبلغ رسالة الله الخالدة من خلال كتابه العظيم الخالد؛ بالاهتمام به وبتفهيمه للناس وبدعوتهم إلى العمل به، وهم لا يريدون الناس أن يفهموا الدين كما أنزل حتى لا ينقطع مصدر كسبهم الحرام الذي يكسبونه عن طريق استغلال جهل الناس بالدين وبكتاب ربهم، لذلك كان لا بد من تفهيم الناس القرآن الكريم وتقريبه منهم ومن عقولهم وقلوبهم، وهذا ما فعله الإمام المودودي.

قارن الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله –المرشد السابق للإخوان المسلمين– بين الإمام حسن البنا والإمام المودودي قائلاً: "إنهما بحق إماما الجيل الظاهران المتفردان، إنهما استمدا كل معلوماتهما ومناهجهما وأساليبهما ووسائلهما في الدعوة إلى الله من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أخذ من هذا الفيلسوف أو استمداد من ذلك الكاتب، فجاءت مدرستهما بعيدة كل البعد عما قد يعيب الدعوة الإسلامية بأي فهم أو تفكير لا صلة له بالإسلام".[7]

كان الابتعاد عن الإسلام وتعاليم القرآن وهدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد أدى إلى تفكك العالم الإسلامي من الداخل، حيث أصبحت المجتمعات الإسلامية خاوية من الداخل، قلدت المظاهر الخارجية الشكلية للمجتمعات الغربية، ظانة أنها بذلك سوف تدرك ركب الحضارة، ولكنها أصبحت كالمنبت، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. دعا الإمام المودودي إلى التمسك بأهداب الدين وهديه لتشكيل الإنسان والمجتمع اللذين يريدهما القرآن الكريم، فألف كتباً كثيرة تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي.

وفي المجال السياسي نرى أنه بعد سقوط الخلافة العثمانية وسيطرة الاستعمار الغربي على بلاد العالم الإسلامي فقد المسلمون القيادة السياسية على بلادهم، وتولاها الغرب الغاشم، فامتص خيراتها، وفي شبه القارة الهندية عمل على إضعاف المسلمين، فأصبحت مناطقهم أضعف المناطق وأقلها مدارس ومؤسسات ومصانع، وكادت تخلو من المرافق الأخرى. جاء الاستعمار إلى شبه القارة الهندية قبل منتصف القرن التاسع عشرتحت غطاء تجاري وباسم شركة الهند الشرقية، وبعد فشل الثورة الكبرى التي قام بها المسلمون والهندوس ضد الإنجليز، استولى البريطانيون على مقاليد الحكم في شبه القارة الهندية، وحكموها لمدة تسعين عاماً، حيث استقلت باكستان والهند عن بريطانيا في عام 1947م ، وخلال التسعين عاماً هذه عمل الإنجليز على إضعاف المسلمين من كل النواحي، وتقوية الهندوس وإغنائهم وإغناء مناطقهم بإنشاء المدارس والكليات والمراكز الرئيسية لكبرى الشركات والمصانع فيها. ومن الجدير بالذكر هنا أن المسلمين كانوا يحكمون الهند كلها قبل مجيء الاستعمار البريطاني في عام 1857م، وحين غادرها في عام 1947م كان للهندوس النصيب الأوفى في كل شيء، وانقلب المسلمون إلى أقلية ضعيفة بعد أن كانت حاكمة، حتى إن باكستان بعد استقلالها –لضعفها– احتاجت إلى مساعدة الإنجليز لإدارة حكم البلاد! أدرك الإمام المودودي كل ذلك فرفع راية الجهاد ضد الاستعمار الإنجليزي، وكان أول كتاب ألفه هو "الجهاد في الإسلام"، الذي أكمله في عام 1927م أي بعد سقوط الخلافة العثمانية بثلاث سنوات، ولم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره.[8] لم يترك الإمام المودودي فرصة إلا استغلها لمحاربة هذا الاستعمار الغاشم.

وبعد انتهاء الاستعمار وقيام دولة باكستان منفصلة عن الهند دعا الإمام المودودي إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وأسلمة القوانين، وعلى رأسها دستور البلاد، وللمودودي إسهام واضح في إضافة الروح الإسلامية إلى دستور عام 1973م الذي جعل من الشريعة الإسلامية مصدراً من أهم مصادر القانون في البلاد. وتعرض خلال ذلك إلى السجن عدة مرات. وقد ألف الإمام المودودي كتباً كثيرة دعت إلى الإصلاح السياسي في باكستان، وفي البلاد الإسلامية الأخرى من منطلقات قرآنية واضحة.

وفي المجال الاقتصادي حارب الإمام المودودي صور الربا المختلفة التي انتشرت في البلاد بسبب البنوك الربوية وشركات التأمين وما إلى ذلك. دعا الإمام المودودي إلى النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يستمد أصوله من أحكام القرآن والسنة ومصادر الشريعة الإسلامية الأخرى. وفي هذا الصدد قام بتأليف عدة كتب في الاقتصاد الإسلامي توضح كيفية العمل به أهمها كتابه "الربا"، وقد أثبت من خلالها أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وفي كل

مجالات الحياة ومنها المجال الاقتصادي على أساس كتاب الله أولاً ثم أحاديث نبيه، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن كل كتبه –في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتعليم ومجالات الحياة الأخرى– ليست إلا تفسيراً للقرآن الكريم.

جهوده في التفسير:

إن حياة الأمة الإسلامية مرتبطة بكتاب الله، فهو الذي منحها الوجود، وقد اهتم المسلمون عبر التاريخ بهذا الكتاب أكثر من أي شيء آخر، لذلك نلاحظ أن التفاسير التي ألفت عبر العصور المختلفة تعكس صورة الفكر الإسلامي في تلك العصور.

وقد ظهرت في شبه القارة الهندية تفاسير كثيرة، وأول تفسير ظهر باللغة العربية في شبه القارة كان في عام **270**هـ، كتبه عالم سندي من أصل عراقي عاش في السند بأمر من عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، ومن الذين كتبوا في هذا الفن في العهد الغزنوي السيد محمد إسماعيل البخاري المتوفى عام **448**هـ، وأول تفسير طبع كاملاً كتبه نظام الدين حسن بن محمد بن محمد بن حسين الشافعي المعروف بنظام النيسابوري، وهو عالم من مدينة دكن الهندية. ثم توالت التفاسير باللغات المختلفة؛ عربية وفارسية وإنجليزية وبشتوية وسندية.(9)

ظهرت في شبه القارة الهندية قبل "تفهيم القرآن" عدة تفاسير باللغة الأردية أولها "تفسير التنزيل" للسيد بابا القادري الذي أكمله عام **1147**هـ، ثم تلته تفاسير أخرى مثل تفسير "موضح القرآن" للشيخ عبد القادر بن الشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى عام **1230**هـ ، وتفسير "فتح المنان" للشيخ عبد الحق الحقاني الدهلوي المتوفى عام **1335**هـ، وتفسير "موضح الفرقان" للشيخ محمود الحسن المتوفى عام **1338**هـ، وتفسير "بيان القرآن" للشيخ أشرف على التهانوي المتوفى عام **1362**هـ، و"التفسير الثنائي" للشيخ ثناء الله الأمرتسري المتوفى عام **1367**هـ، و"ترجمان القرآن" للشيخ أبي الكلام آزاد المتوفى عام **1958**م، و"تدبر القرآن" للشيخ أمين أحسن إصلاحي، و"التفسير الماجدي" للشيخ عبد الماجد الدريا آبادي، و"معارف القرآن" للشيخ المفتي محمد شفيع، و"خزائن العرفان على كنز الإيمان" للشيخ محمد نعيم المراد آبادي المتوفى عام **1367**هـ، و"نور العرفان في حاشية القرآن" للشيخ أحمد يار خان، و"ضياء القرآن" للشيخ محمد أكرم شاه الأزهري المولود عام **1918**م. بالإضافة إلى هذه التفاسير ثمة تفاسير أخرى باللغة الأردية رفضتها الأمة ولم تتلقها بالقبول لمخالفتها عقائد المسلمين وأصولهم.(10)

لكل تفسير هذه التفاسير مميزات، فبعضها اهتم بالجانب اللغوي وبعضها بالجانب التاريخي وبعضها بمباحث الكلام وبعضها بالقضايا الفقهية وبعضها بجانب التصوف، وبعضها جمع بين أكثر من جانب. ولكن تفسير الإمام المودودي "تفهيم القرآن" يتفرد بخصائص وسمات لا توجد في أي تفسير آخر.

لم يهتم الإمام المودودي بأمر كما اهتم بالقرآن الكريم، وذلك منذ نعومة أظفاره، فكل مؤلفاته انطلقت من القرآن الكريم، فأساسها ومحورها الذي دارت حوله هو هذا الكتاب الحكيم، الذي استهداه في كل خطوة خطاها في حياته، كان القرآن منارته التي يهتدي بها. بعد تشكيل جماعته بستة أشهر أصدر مجلة "ترجمان القرآن" –وكانت لديه خبرة طويلة في إدارة المجلات– ومن خلالها بدأ يبلغ رسالة القرآن إلى الناس عامة وإلى أفراد جماعته خاصة، لأنهم سلكوا مسلك الأنبياء في دعوة الناس، وخاصة مسلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أيقن الإمام المودودي أن القرآن والسنة مصدران أساسيان لكل دعوة إسلامية حقة. وخلال هذه المرحلة قام المودودي برحلة سميت بالرحلة إلى أرض القرآن، وقد بدأها في الثالث من شهر نوفمبر عام **1959**م، ليرى بنفسه المواضع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وذلك حتى يكون شرحه وتفسيره أدق لآيات القرآن الكريم. استمرت هذه الرحلة حتى الخامس من شهر فبراير

عام 1960م، زار خلالها السعودية والأردن وفلسطين وسوريا ومصر، ولم يتمكن من زيارة العراق لعدم حصوله على تأشيرة الدخول إليها.

إذن لم يؤلف الإمام المودودي تفهيمه وهو قابع في زاوية من زوايا بيته أو مكتبه منعزلاً عن الناس وعن الحياة، وإنما ألفه وهو يقود حركة إسلامية، ويواجه الصعاب والمتاعب، ويخوض غمارها.

ذكر الإمام المودودي بنفسه سبب تأليفه "تفهم القرآن"، وذلك حين قال: حين وفقني الله إلى تأسيس الجماعة الإسلامية أيقنت أنه لا يمكن للساني وقلمي أن يحققا ذلك الهدف العظيم الذي وضعته أمامي. لا يمكن أن أحقق ذلك الهدف السامي إلا إذا جعلت القرآن وسيلتي، وذلك لأن الله أنزل كتابه لهذا الغرض، ولا يمكن للناس أن يفهموا هذه الدعوة إلا إذا فهموا القرآن، فكان لا بد من أن أقوم بتفسيره وتفهيمه للناس حتى يفهموا هذه الدعوة.[11]

وكانت البلاد والأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى أمثال الإمام المودودي وتفسيره، وخاصة في وقت اشتداد هجمات المستشرقين من اليهود والنصارى وافتراءاتهم، واستسلام الشباب أمام تلك الحملات، وقيام بعض المسلمين بالدفاع عن الإسلام بطريقة فيها الكثير من الاستسلام والانهزام، مكتفين بالرد على الشبهات والشكوك دون عرض الجوانب الإيجابية الكثيرة للإسلام، ومن جانب آخر ظهرت كثير من الحركات الهدامة المنحرفة مثل القاديانية والبهائية وحركة إنكار السنة وحركة التغريب والتفرنج وحركة تطوير الإسلام ليتلاءم مع العصر والحركات التبشيرية والشيوعية والعلمانية.

كان لهذا التفسير أثر كبير في شبه القارة، وأثر أعمق على الفكر الإسلامي المعاصر فيها، حيث ضحح كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانت تعشعش في عقول وقلوب كثير من الناس في شبه القارة الهندية نتيجة بعدهم عن مصادر الإسلام وعلى رأسها القرآن، ونتيجة تأثرهم بالهندوس وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم أثناء معايشتهم للهندوس لمئات السنين، وانتقل هذا أثر تفهيم القرآن بشكل أو بآخر إلى العالم كله عن طريق الترجمة،[12] وقد ترجم إلى لغات كثيرة منها الإنجليزية والسندية والبنغالية والبشتوية والفارسية والتركية، وأما العربية فقد قام بعض الأفراد بترجمة بعض سور هذا التفسير مثل الشيخ عاصم الحداد والشيخ خليل الحامدي، ولم يترجم كاملاً حتى الآن، وهناك محاولة يقوم بها زميلي الدكتور نور جمعة أستاذ الأدب في كلية اللغة العربية بالجامعة، الذي انتهى -حتى وقت كتابة هذا البحث- من ترجمة تفسير سورة البقرة، وأرجو أن يمده الله بالطاقة والهمة كي يكمل هذا التفسير لما له من خصوصيات سآتي على ذكرها إن شاء الله تعالى.

قام الإمام المودودي بتأليف تفسيره "تفهيم القرآن" خلال ثلاثين عاماً امتدت من عام 1942م إلى عام 1972م في ستة مجلدات، وكان قد فصل الترجمة الأردية المختصرة عن التفسير المفصل، وأضاف إليها تعليقات موجزة سماها الحواشي،[13] وقد صدرت هذه الترجمة في عام 1971م. قرر الإمام المودودي بعد أن شكل الجماعة الإسلامية في شهر أغسطس عام 1941م أن يقوم فوراً بتفهيم القرآن للناس ولأفراد جماعته التي كانت تشكلت حديثاً، حيث بدأ كتابة التفسير في شهر فبراير عام 1942م، مشكلاً بذلك الأساس الذي تعتمد عليه جماعته في العمل الدعوي، والمنارة التي تسير على هداها. ولم يشرع الإمام في كتابة هذا التفسير إلا بعد أن أفرغ خزانات كتب التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والفقه واللغة وكتب مقارنة الأديان وكتب الفلسفة في عقله، وفي ذلك يقول: "إن تفهيم القرآن في الحقيقة هو خلاصة قراءاتي في الفلسفة والتاريخ والعلوم والعمرانيات والعلوم الدينية خلال خمس

وخمسين سنة الماضية"،[14] لم يكتف بذلك بل قرأ كتب الأديان الأخرى مثل النصرانية واليهودية والهندوسية والبوذية.[15] وقد كان الإمام المودودي محتاطاً جداً عند كتابة التفسير، لأنه كان يعلم جيداً أنه إنما يشرح كلام الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فالتزم الحيطة والحذر وهو يقوم بهذا العمل الجليل. يقول الإمام المودودي في ذلك: "كنت على يقين وأنا أكتب هذا التفسير من أنني لو كتبت حرفاً واحداً فيه دون تحقيق أو تثبت فستحبط كل أعمالي وتذهب سدى".[16] ويقول في هذا الصدد: "كنت إذا عجزت عن فهم آية أو مجموعة من الآيات أترك الكتابة، وأبدأ في القراءة والبحث والتحقيق حتى أتأكد من مفهومها حسب اجتهادي، ثم أعود إلى الكتابة".[17] اهتم أولاً بمعاني الألفاظ من الناحية اللغوية، ثم استعرض المناسبات التي وردت فيها هذه الكلمة، ثم استعرض الآيات الواردة في موضوع الآية أو الآيات التي هو بصدد تفسيرها، ثم نظر فيما إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة تفسير لها، ثم ينظر في التفاسير القديمة وما ورد فيها حول الآية أو الآيات التي يتعرض لتفسيرها. كان حريصاً جداً على خلو تفسيره من الأخطاء والأغلاط، لذلك نشره على حلقات في مجلة "ترجمان القرآن" قبل أن يجمعه بين دفتين، وكان يطلب من الشيوخ والعلماء أن يهدوا إليه أخطاءه، وقد حدث ذلك بالفعل، حيث استدرك عليه بعض الشيوخ بعض الأخطاء فراجع نفسه فيها وصححها.[18]

أسس نظرته إلى القرآن الكريم:

1- إن القرآن الكريم في نظر الإمام المودودي أولاً وأخيراً كتاب هداية، أرسله الله سبحانه وتعالى لهداية الإنسانية إلى ما فيه خيرها وصلاحها، هداية الأفراد والجماعات، وهذه الهداية ليست في ميدان الأخلاق فقط بل في كل ميادين الحياة، للناس جميعاً في كل مكان وزمان.[19]

2- وهو في نظره كتاب دعوة، يدعو إلى بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة. هكذا فهمه الإمام المودودي وهكذا أراد أصحابه والناس أجمعين أن يفهموه. أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم راسماً له طريق دعوته، ومربياً أصحابه، ومحدداً لهم السبل التي يسلكونها وهم في خضم دعوتهم يلقون ما يلقون من الصعاب والمشاكل. يقول الإمام المودودي في ذلك: "حين بدأت تأليف كتابي "الجهاد في الإسلام" عكفت على قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قراءة متفحصة، فأدركت أن القرآن الكريم لم ينزل على المسلمين ليتلوه فقط وإنما هو كتاب دعوة وحركة، يدعو المسلمين في العالم إلى الحركة".[20]

3- بعد أن يقنع الإمام المودودي القارئ بأن القرآن كتاب هداية ودعوة يدعونا من خلال تفهيمه إلى أن نقتنع بصلاحية النظام الإسلامي لكل زمان ومكان، فهو كتاب هداية ودعوة، وفيه كل نظم الحياة، وقد كتب الإمام المودودي عن النظم الإسلامية المختلفة مؤصلاً كلامه بالقرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، مثل النظام السياسي والنظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي والتعليمي وما إلى ذلك. والمودودي في تفهيم القرآن يكمل ما حاول إثباته في هذه الكتب، حيث أثبت أن الإسلام هو الدين الكامل والوحيد الذي يناسب البشرية، لأنه من عند الخالق "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (سورة الملك: 14) ومن خلال إبراز النظم الإسلامية المختلفة وصلاحيتها يريدنا أن ننتقل معه إلى خطوة أكبر وهي الاهتمام بإقامة الحكومة الإسلامية، وقد أثبت الإمام المودودي أنه لا يمكن العمل الحقيقي الكامل بأحكام الإسلام إلا في ظلال الحكم الإسلامي.

4- والقرآن في نظر الإمام المودودي ليس كتاباً خاصاً بمرحلة تاريخية معينة كانت وانتهت، وإنما هو كتاب أبدي، كتاب يؤسس تاريخاً، رسالة من رب العباد إلى عباده في كل الأزمان والأمكنة إلى قيام الساعة.[21]، وقد دعا الإمام المودودي أصحابه والناس جميعاً من خلال "تفهيم القرآن" إلى أن يقرأوا القرآن وكأنه يتنزل عليهم.

5- ولم يكن المودودي من القائلين بالمجاز في القرآن إلا إذا لم يجد سعة في المفهوم الحقيقي، وفي هذه الحالة لابد من وجود دليل واضح إما في سياق الكلام أو في نص صريح أو بدلالة المفهوم، وإما في الآيات التي وردت في نفس المعنى في مواضع أخرى من القرآن.[22]

سمات "تفهيم القرآن":

تميز التفسير الذي ألفه الإمام المودودي بسمات وخصائص لم تتوفر في أي تفسير آخر في شبه القارة الهندية، حيث انطلق الإمام المودودي من منطلقات وأسس تختلف عن الآخرين، فقد كان همه هو السير على خطا القرآن والعمل به أكثر من الدخول في مباحث عقلية أوعلمية قد لا تفيد القارئ كثيراً، ولا تهم إلا المتخصصين، ورغم هذا ففي هذا التفسير ما يفيد المتخصصين أيضاً، ولكن ذلك لم يكن همّ الإمام المودودي. وفيما يلي أهم سمات هذا التفسير:

1- أعاد الإمام المودودي –بهذا التفسير– علاقة بالناس القرآن الكريم مباشرة دون وسيط، بعد أن كان فهمه وتفسيره حكراً على فئة معينة من الشيوخ. لذلك لا نجد في "تفهيم القرآن" المباحث التقليدية التي نجدها عادة عند أكثر المفسرين، وهو كذلك خال من الروايات الإسرائيلية ومباحث علم الكلام بالطرق التقليدية، وكذلك لا نجد فيه المناقشات الفقهية التي يحرص بعض علماء التفسير عليها في تفاسيرهم. حاول الإمام المودودي أن يجنب الناس التعصب الفقهي الذي أبعدهم عن مشاكلهم الحقيقية، وجعلهم ينشغلون ببعضهم غير آبهين بما يدبر لهم الأعداء. وكذلك يكاد هذا التفسير يخلو من مباحث أصول التفسير، إلا بما يخدم تفهيم القرآن للناس.[23]

2- قدم لنا الإمام المودودي من خلال "تفهيم القرآن" تصوراً جديداً لنَظم القرآن أو الوحدة الموضوعية للقرآن. إذا كان بعض المفسرين قد ربطوا في تفاسيرهم بين الآيات بعضها ببعض، وآخرون ربطوا بين السور بعضها ببعض، فإن المودودي نظر إلى القرآن كلاً متكاملاً أو وحدة واحدة، يدور كله حول محور رئيسي واحد، وهو محور الدعوة.[24] يقول الإمام المودودي في ذلك: "إن الذي يقرأ القرآن -واضعاً في اعتباره ما أشرنا إليه- يتبين له أن هذا الكتاب لم يبتعد عن موضوعه الأساسي قيد أنملة في أي موضع منه، وقد ترابطت أجزاؤه وأفكاره من أولها إلى آخرها حول الموضوع الرئيس، كما تنتظم الدرر المختلفة الأشكال والأحجام في سلك عقد واحد".[25]

3- تحدث الإمام المودودي في بداية كل سورة من سور القرآن عن شخصية السورة فيما سماه "الديباجة"، ملاحظاً أن شخصية كل سورة تختلف عن شخصيات السور الأخرى. وتناول في هذه المقدمات علاقة اسم السورة –وهو أمر توقيفي– بما فيها من موضوعات، فالاسم كما نعرف أول رسالة تصل إلى القارئ لأي كتاب كان. وكذلك تحدث في هذه المقدمات عن زمن نزول السورة، وعن الخلفية

التاريخية والموضوع أو الموضوعات التي دارت حولها السورة، ثم بيان موجز لأهم مباحثها.[26] ولهذه المقدمات أهمية كبيرة فهي تعين القارئ على فهم السورة فهماً أعمق وأدق وأكثر شمولية، وفي هذا يقول الإمام المودودي: "من مقتضيات فهم القرآن فهما شاملاً الإحاطة بالخلفيات والظروف التي نزلت فيها السورة، وهذا لا يتحقق بنقل المعاني فقط، لذا كتبتُ مقدمة لكل سورة من سور القرآن بينت فيها الظروف التي نزلت فيها، والمرحلة التي تحدثت عنها من مراحل الدعوة الإسلامية وعن متطلباتها ومقتضياتها".[27] وهذه من أهم خصوصيات "تفهيم القرآن"، ولأهميتها البالغة وجدنا الأستاذ سيد قطب يسير على هذا المنهج في تفسيره "في ظلال القرآن".[28]

4- حين يتعرض الإمام المودودي للأحكام الفقهية فإنه ينظر إليها في ضوء السورة كلها بل في ضوء القرآن كله، فالأحكام الفقهية جزء لا يتجزأ من القضايا العقدية والفكرية والاجتماعية، فهو يوضحها في ضوء السياق الذي وردت فيه، ويبين الحكمة من ورودها في ذلك الموضع من القرآن. وهو يستعرض آراء الفقهاء في القضية المثارة في الآية أو الآيات التي يفسرها، ثم يبين رأيه في القضية أو ترجيحه لرأي من تلك الآراء، وأحياناً يترك الحكم للقارئ بعد أن يبين الآراء بالتفصيل وبالأدلة الشرعية؛ النقلية منها والعقلية، على قاعدة "استفت قلبك وإن أفتاك الناس و أفتوك". ومن أهم ما يميز "تفهيم القرآن" أن صاحبه حاول –من خلاله– أن يقرب بين المذاهب الفقهية وبين المنتمين إليها، وأن يوحد بينهم على الأسس المتفق عليها، وليعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، والابتعاد عن العصبية المنكرة الباعثة على الاختلاف والفرقة والتشاحن المؤدي إلى الفشل وذهاب ريح المسلمين، الأمر الذي استغله أعداء الإسلام في تشويه صورة الإسلام النقية.[29]

5- من يقرأ "تفهيم القرآن" يلاحظ تناوله المنفرد لعلم من أصعب العلوم وهو علم مقارنة الأديان، رغم أنه كتاب في التفسير، ودراسة الإمام المودودي لهذا العلم ضمن تفسيره دراسة عميقة، ولكنها ضمن بيان مفهوم القرآن وتفسيره، وضمن السياق القرآني، فيقارن بين الأديان السماوية والوضعية وبين الإسلام مثبتاً صواب الإسلام وأفضليته، كل ذلك بالأدلة والبراهين.[30]

6- يعد "تفهيم القرآن" نموذجاً للوسطية بين الجمود والحداثة، فقد التزم الإمام المودودي في تفسيره بالأصول الثابتة والأسس المتينة في التفسير، ولم يخرج عما قاله السلف الصالح في هذا الفن، وفي نفس الوقت وضع نصب عينه الواقع الجديد الذي تعيشه الأمة الإسلامية والحركة الإسلامية ومتطلباتهما المتجددة.[31]

7- يرى الأستاذ خورشيد أحمد نائب رئيس الجماعة الإسلامية ورئيس المعهد الإسلامي للدراسات السياسية أن الإمام المودودي وضع من خلال "تفهيم القرآن" أسس علم كلام جديد يتناسب مع العصر والظروف الجديدة، انطلاقاً من أن لكل زمان ومكان قضايا ينفردان بها، وهكذا ظهرت في العصر الحديث الذي عاشه الإمام المودودي قضايا مختلفة عن القضايا القديمة نتيجة لغلبة الثقافة الغربية وسيطرتها على العالم الإسلامي، ونتيجة لما خرج من عباءتها من علوم وفنون. قام العلامة شبلي النعماني ومولانا أبو الكلام آزاد والعلامة إقبال بمحاولات في هذا الشأن ولكنها لم تكن كافية. نجد خطوط علم الكلام

الجديد هذا مبثوثاً في ثنايا "تفهيم القرآن". وثمة حاجة إلى من يقوم بلم شتات هذا العلم في الصورة الجديدة التي تصورها الإمام المودودي، مضيفاً إليه محاولات العلماء الآخرين في هذا الصدد. وقد حاول الأستاذ خورشيد أحمد نائب أمير الجماعة الإسلامية وضع أسس هذا العلم عند الإمام المودودي من خلال استقرائه لتفهيم القرآن،[32] وقد توصل إلى ما يلي:

أ- لا يمكن فهم الدليل القرآني من آية واحدة أو مجموعة من الآيات. لابد من النظر إليه في ضوء القرآن كله، ولابد من مراعاة السياق حتى نصل إلى المفهوم الحقيقي لتلك الآية أو الآيات. وسبب الأخطاء التي وقعت فيها بعض المذاهب الكلامية هو الأخذ ببعض القرآن والاستشهاد ببعض الآيات.

ب- وضع كل من الوحي والعقل والتجربة البشرية في مكانه اللائق به، وذلك في سياق الرد على الغرب المادي الذي ينكر الوحي، ويعتمد على العقل والتجربة البشرية فقط، والإسلام لا ينكر أهمية العقل والتجربة البشرية، ولكن بشرط أن لا يصطدم مع الوحي الصحيح، فهو -أي الإمام المودودي- لا ينكر العقل السليم، حيث نلاحظ احتفاء "تفهيم القرآن" بالعقل السليم في مواضع كثيرة، ولكنه لا يقتصر عليه، وهذا هو منطق القرآن.

ت- يردّ صاحب "تفهيم القرآن" على الفكر المادي والجدلي الغربي المبنيين على قاعدة الشك، والقائمين على الصراع، واعتبارهما أصلاً في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ولعلاقة الحضارات بعضها ببعض، والأمم بعضها ببعض، مؤمناً بأن اليقين هو الأصل، وأن الأصل في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وفي علاقة الحضارات والأمم بعضها ببعض هو التعاون، على قاعدة: وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

ث- دحض مقولات الفكر الغربي بأسلحته، وهذا ما تعلمه من أسلوب القرآن الذي روى لنا قصة إبراهيم عليه السلام حين سفه أفكار قومه وعقائدهم بطريقتهم التي يفهمونها، وذلك حين حطم كل الأصنام وأبقى كبيرهم، وطلب منهم أن يسألوه، فرجعوا إلى أنفسهم وراجعوها معترفين بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تتكلم! ولكن التقليد الأعمى لدين الآباء والأجداد حال دون إيمانهم بالحق الأبلج. وكذلك نجد أمثلة رائعة من هذا النوع في "تفهيم القرآن" حيث نقد الإمام المودودي الأفكار الغربية بمنطقهم وبأساليبهم.

ج- ربط الإمام المودودي العلاقة بين آيات القرآن الكريم وواقعنا اليوم، وحاول تطبيق تلك الآيات على قضايانا المعاصرة، وهذا يزيد من ثقتنا ويقيننا في القرآن من ناحية، ومن ناحية أخرى يثبت أن القرآن كلام الله، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

ح- إن القرآن الكريم يخاطب القلب والعقل معاً، ويعمل على تزكية النفوس حتى تتشكل الشخصية التي يريدها الله سبحانه وتعالى. وفي "تفهيم القرآن" نجد نفس الخط، فعلم الكلام الجديد الذي حاول الإمام المودودي أن يؤسسه من خلال تفسيره لا يقتصر على الإيمان أو العمل الصالح، بل الربط بينهما برباط لا ينفك حتى ينشأ الجيل المطلوب.

ولكني لا أتفق تماماً مع أستاذنا الفاضل خورشيد أحمد فيما ذكره من أسس علم كلام جديد عند الإمام المودودي، فبعض هذه الأسس تعد من الأصول العامة للفكر الإسلامي، وليس لها علاقة مباشرة بعلم الكلام. ومع ذلك أضم صوتي إلى صوت الأستاذ خورشيد أحمد، وأطالب -من هذا المنبر- الباحثين والدارسين إلى الاهتمام بهذا التفسير، ودراسة النواحي المختلفة فيه، ومن ذلك علم الكلام الجديد الذي أشار إلى الأستاذ الفاضل.

8- اهتم الإمام المودودي بالتفسير بالمأثور أكثر من التفسير بالرأي، والمقصود بالتفسير بالمأثور هو تفسير القرآن بالقرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين وما أثر عن المفسرين الأوائل.[33]

9- وللإمام المودودي منهج خاص يكاد ينفرد به عن غيره في تعرضه لقصص القرآن، فهو أولاً يبين الهدف من القصة، ويبين الحكمة من تكرارها إذا تكررت في السورة الواحدة أو في أكثر من سورة، ثم -وهذا هو الأهم- يربط بين القصة والمرحلة التي مرت بها دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك يوجه الدعاة اليوم إلى كيفية الاستفادة من الدروس المستخلصة من القصة. كل ذلك حتى يفهم القارئ الآيات التي وردت فيها تلك القصص فهماً صحيحاً، وحتى تحدث أثرها المطلوب فيه.[34]

10- نلاحظ أن الإمام المودودي يستعين في تفسيره "تفهيم القرآن" بالصور والخرائط التي صورها خلال رحلته - التي سميت بالرحلة إلى أرض القرآن[35]- للأماكن والمواضع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، الأمر الذي أضفى على هذا التفسير سمة ليست موجودة في أي تفسير آخر.

11- ومن أهم ما يميز "تفهيم القرآن" عن غيره من التفاسير المكتوبة باللغة الأردية هو أسلوب الإمام المودودي في ترجمة معاني القرآن الكريم. إن كل التفاسير السابقة واللاحقة على هذا التفسير ترجمت معاني القرآن الكريم ترجمة حرفية، كلمة كلمة، وقد كتبت الترجمة الأردية بين سطور النص القرآني، وهذه الطريقة رغم فوائدها -حيث تعرفنا بمعاني كلمات القرآن- فإنها تذهب بسلاسة القرآن، وتؤدي إلى تداخل العبارتين؛ العربية والأردية. وقد قام عدد كبير من العلماء بترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية، أمثال الشيخ المحدث شاه ولي الله الدهلوي والشاه رفيع الدين والشاه عبد القادر والشيخ محمود الحسن والشيخ نذير أحمد الدهلوي والأستاذ أحمد خان والشيخ أشرف علي التهانوي وآخرين.[36] وقد اعترف الإمام المودودي نفسه بأهمية الترجمة الحرفية وفوائدها، وذكر أن هؤلاء كفوه مؤونة هذا الجانب، ولا داعي لبذل المزيد من الجهود في هذا الصدد، ولكن ثمة أغراض وفوائد أخرى أهم من هذه لا يمكن أن تتحقق بترجمة معاني القرآن بهذه الطريقة، منها سلاسة العبارات وبلاغة القرآن وحرارة الأسلوب وترابط الكلام وعدم تقطيعه حتى لا تفقد الترجمة تأثيرها، وحتى لا تنقطع العلاقة بين الترجمة والأحداث والخلفيات التي نزلت السورة في ضوئها، الأمر الذي تداركه الإمام المودودي في ترجمته فوضحه بين قوسين، وكذلك وضع الكلام غير المباشر والذي يفهم من السياق بين قوسين، وذلك حتى يفصل بين ما جاء مباشرة في القرآن والمعنى المراد، وأحياناً يربط بين الآيات بكلمات من عنده حتى لا ينقطع تسلسل القرآن وحتى يسهل فهم معناها، وذلك أيضاً بين قوسين. وجاءت ترجمة المودودي بلغة أدبية راقية، لم يلتزم فيها بترتيب كلمات النص القرآني، وإنما ترجم حسب المعني وحسب ترتيب اللغة الأردية، ومن الجدير بالذكر أنه لم يخرج في ترجمته لمعاني القرآن عما قاله المفسرون الذين سبقوه، أمثال الشاه ولي الله الدهلوي وابنيه الشاه رفيع الدين والشاه عبد القادر والشيخ أشرف علي التهانوي والآخرين. وقد كان الإمام المودودي دقيقاً في اختيار الكلمات، وكان يراجع في ذلك كتب اللغة الموثوق بها، وفي حالة عدم عثوره على المرادف الدقيق لما في القرآن كان يختار أقرب التعابير إلى النص القرآني، ثم يشير إلى ذلك في الحواشي، وفي حالة وجود أكثر من ترجمة صحيحة للنص القرآني كان يختار الأرجح، ويشير إلى الباقي في الحواشي.[37]

12- عمل أكثر النقاد في العصر الحديث على الفصل بين الأدب والفكر، وحصر الفنون الأدبية في الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية وأشكال أدبية معينة. أما الفكر الجاد في العلوم المختلفة، وخاصة في العلوم الدينية فقد أخرجوه من دائرة الأدب، ومن قبل هذا فصلت الحداثة بين الدين والدنيا،وبين العقيدة والحياة، وبين العلم والتربية..إلخ. يرى الأستاذ آسي ضيائي-الأديب الإسلامي-أن أول محاولة للربط بين الأدب والفكر في النثر الأردي كانت على يد الشاه إسماعيل، وذلك من خلال كتابه "تقوية الإيمان" الذي

ألفه في موضوع ديني بحت،ورغم ذلك لا يقل بلاغة وفصاحة واستخداماً للمحسنات البديعية والكنايات والاستعارات والتشبيهات عن أي كتاب أدبي ، فالكتاب مكتوب بلغة أدبية راقية وأسلوب فني جذاب، ويرى الأستاذ آسي ضيائي أن هذا الكتاب كان أول خطوة للتصالح بين الفكر والأدب بعد قطيعة دامت زمناً طويلاً،ويضيف الأستاذ آسي ضيائي قائلاً أن ما كتبه الإمام المودودي في"تفهيم القرآن"يعد أدباً بكل المعايير الفنية، استخدم فيه الأساليب البلاغية المختلفة. إن "تفهيم القرآن" رد قوي على كل من يريد أن يفصل الدين ومباحثه عن الأدب(38)

إن أدبية "تفهيم القرآن" من أهم خصائص هذا التفسير، يستطيع أن يلمسها كل من يملك ذوقاً أدبياً. ومن الجدير بالذكر هنا أن علماء شبه القارة –عموماً– كان لهم دور ملموس في تطوير اللغة الأردية وآدابها، ومن هؤلاء الإمام المودودي الذي ساهم في الارتقاء بهذه اللغة وآدابها من خلال تفسيره الفريد من نوعه. ومما يلاحظ على أردية الإمام المودودي وجود كلمات عربية كثيرة فيها، وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن اللغة الأردية لغة حديثة نسبياً تتنازعها ثلاثة اتجاهات أو لغات، هي: أولاً اللغة العربية التي اكتسبت منها اللغة الأردية ألفاظاً كثيرة، وأخذت منها خطها كذلك، وثانياً اللغة السنسكريتية، لغة الهند القديمة التي كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة، وانحصرت في كتب الهندوس المقدسة، ورغم ذلك تحاول الآن أن ترفع رأسها تعصباً، وقد بدأ الهندوس يحيون أيضاً لغة الباشا، وهي لغتهم القديمة التي عفا عليها الزمن، ويكتبونها بحروف خط اسمه "ناكري" وهو خط قديم أيضاً، رغم أن الهند كلها تقريباً كانت تكتب بالحروف العربية أيام الحكم الإسلامي الذي دام قرابة ثمانية قرون، وقد استطاعوا في الهند الآن أن يستبدلوا حروف الخط الناكري بالحروف العربية للغة الأردية التي يسمونها –تعصباً– اللغة الهندية. واللغة الثالثة التي تتنازع الأردية هي اللغة الإنجليزية التي بدأت تؤثر بقوة في اللغة الأردية وفي خطها أيضاً.(39)

وللإمام المودودي طريقة خاصة في الرد على الشبهات والتأويلات الباطلة التي أثارها أعداء الإسلام وأصحاب الفرق الضالة، وإبراز موقف الإسلام من الفلسفات الجاهلية القديمة والمعاصرة. ومما يميز تفسيره اهتمامه الخاص بالأمثال، فهو يسير على نهج القرآن في الاستعانة بالأمثال في توضيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان، ونظراً لأهمية هذه الأمثال قام الأستاذ أختر حجازي بجمع الأمثال الواردة في هذا التفسير في كتاب.(40) والمودودي أول من وضع فهرساً للموضوعات الواردة في "تفهيم القرآن"، وهذا الأمر ربما لا يعد غريباً اليوم، فكثير من الكتب التي تصدر هذه الأيام توضع لها فهارس متنوعة، ومنها فهرس الموضوعات، ولكن الأمر كان غريباً في زمن الإمام المودودي، فهو أول من وضع هذا الفهرس لموضوعات "تفهيم القرآن" بنفسه، وسماه "الإشارية".(41)

خلاصة البحث:

صدّر الإمام المودودي إحدى مقالاته بهذه الآية: "إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً"، وذلك حين أحس ببعد قومه عن القرآن، وأن مسئوليته كبيرة إزاء هذا الأمر الخطير، فعكف على تأليف تفسيره الذي بين أيدينا.(42)

حقق الإمام المودودي بتفسيره الذي كتبه في ثلاثين عاماً أهدافاً كبيرة، أهمها:

1- بلّغ دعوته بأحسن أسلوب من خلال هذا التفسير، فدعوته هي دعوة القرآن.

2- قرّب القرآن إلى نفوس الناس وعقولهم، من العوام والخواص، ومن كافة التخصصات، ووضعه في متناول الجميع، بعد أن كان فهمه حكراً على العلماء والشيوخ لا ينازعهم فيه أحد.

3- استطاع الإمام المودودي –إلى حد بعيد– أن يقلل المسافات بين الناس، وأن يوحدهم على القرآن.

4- وضع الإمام المودودي أهداف القرآن نصب عينه وهو يكتب تفسيره "تفهيم القرآن".

5- واجه التحديات المعاصرة التي هاجمت المسلمين بكل جرأة وقوة من خلال هذا التفسير.

6- يعد هذا التفسير تفسيراً عصرياً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. عصرياً في لغته وفي أسلوبه وفي طريقة عرضه للموضوعات وفي أسلوب تناوله للمشاكل، وتقديم الحلول الناجعة لها من هدي القرآن العظيم.

7- كان الإمام المودودي رحمه الله موسوعة في علوم كثيرة، وقد جمع علمه في هذا التفسير، وهو –أي التفسير– بحاجة إلى دراسات تتناول جوانبه المختلفة، وتستخرج لآلئه المكنونة، على طراز ما فعله الأستاذ خورشيد أحمد من محاولة ترتيب علم الكلام عند المودودي من خلال تفسيره.

8- إن "تفهيم القرآن" ثورة فكرية شاملة غيرت مفاهيم خاطئة كثيرة كانت قد استقرت في أذهان كثير من الناس الذين وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، فتبعوهم وتركوا القرآن مهجوراً.

9- إن "تفهيم القرآن" ليس خاصاً بفئة أو طائفة أو طبقة دون أخرى، فقد استفاد منه الجميع على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم وانتماءاتهم ومهنهم وتخصصاتهم.

يبقى أن نعرف أن هذا التفسير جهد بشرى قابل للخطأ والصواب والإصابة والزلل، وقد أشار بعضهم إلى بعض الأخطاء الطفيفة التي وقع صاحب التفهيم فيها. واقتصاري على ذكر محاسن وخصائص "تفهيم القرآن" لا يعني خلوه من المثالب والعيوب، ولكنها بشكل عام أخطاء بسيطة وعيوب قليلة.

إن لهذا التفسير مكانة لدى أهل شبه القارة وكل من يعرف اللغة الأردية، وإليكم فيما يلي آراء بعض الشخصيات الهامة في "تفهيم القرآن":

- قال الدكتور اشتياق حسين قريشي، رئيس جامعة كراتشي سابقاً: "نحس حين نقرأ "تفهيم القرآن" أن مولانا المودودي جند كل إمكاناته و طاقاته لتسهيل فهم القرآن للناس، ولإقناعهم بأن الإسلام نظام شامل وكامل للحياة".[43]
- وقال القاضي بديع الزمان كيكاوس، القاضي في المحكمة العليا في باكستان: "كثير من القضاة والمحامين يستفيدون من "تفهيم القرآن"، ودليل ذلك أن صاحب التفهيم كثيرا ما يُذكر في أحكام المحاكم العليا".[44]
- وقال العميد محمد أكرم: "لا يُسأل عن أهمية "تفهيم القرآن" إلا رجل كان ملحداً، ثم عرف الحقيقة بعد قراءة هذا الكتاب".[45]
- وقالت الأستاذة زكية فاطمة رئيسة الجمعية الإسلامية في باكستان –قسم الطالبات سابقاً (الجناح الطلابي التابع للجماعة الإسلامية): يشهد آلاف الشباب بالدور العظيم الذي قام به "تفهيم القرآن" في إنقاذهم من مخالب العلم اللاديني والحضارة اللادينية".[46]

- وقال مولانا جراغ وهو من أكبر تلاميذ مولانا أنور شاه الكشميري: "قام صاحب التفهيم بدور عظيم في مواجهة فتن هذا العصر بأسلوب حكيم، والرد عليها".[47]

كان الإمام المودودي قد عزم بعد انتهائه من تفسيره الخالد على الشروع في تأليف كتاب في السيرة، ثم بعد ذلك كان ينوي أن يرتب مجموعة من الأحاديث مع الشرح في كتاب، ولكن الأجل عاجله، فانتقل إلى الرفيق الأعلى تاركاً خلفه ذخيرة علمية تحتاج منا اهتماماً كبيراً.

الهوامش

[1] - سيد محمد علي إيازي، "تفهيم القرآن، إيك عصري وعمراني تفسير" (بالأردية) مقال ضمن العدد الخاص لمجلة "ترجمان القرآن" عن السيد أبي الأعلى المودودي، المجلد 131، العدد 5، الصادر في شهر مايو من عام2004، ص298.

[2] - "الرسائل والمسائل" مقال لكاتب البحث نشر في "صحيفة العرب" اليومية الصادرة من دولة قطر، العدد 7468 بتاريخ 22 نوفمبر عام 2008م.

[3] - "Islamic Perspectives" Studies in Honours of Mawlana Sayyid Abul A,la Mawdudi, Edited by: Khurshid Ahmad & Zafar Ishaq Ansari, 1978, The Islamic Foundation, UK in association with Saudi Publishing House, Jeddah. P.361

[4] - "مولانا مودودي أبني أور دوسرون كي نظر مين" (بالأردية) الأستاذ محمد يوسف بهته، إدارة معارف إسلامي، لاهور، 1984م، ص396.

[5] - "مولانا مودودي" (بالأردية) الأستاذ ملك غلام علي، مقال ضمن العدد الخاص لمجلة "آيين"، المجلد 11، العدد 7، الصادر بتاريخ 15 ديسمبر 1972م، ص184.

[6] - ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه "كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها. قيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم. أخرجه الحاكم والبيهقي.

[7] - مجلة "الدعوة" كان يصدرها الإخوان المسلمون، العدد الصادر في الأول من شهر ذي الحجة عام 1399هـ، ص4

[8] - طبعت الكتاب ونشرته "دار المصنفين" في أعظم كره في عام 1930م. راجع التفصيل في: آباد شاه بوري، "تاريخ جماعت إسلامي" (بالأردية) الجزء الأول، إدارة معارف إسلامي، لاهور، 1989م، ص199.

[9] - "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب" (بالأردية) الأستاذ خورشيد أحمد، طبع إدارة "منشورات"، ص9

[10] - "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- قسم الدراسات العليا الشرعية- فرع الكتاب والسنة في عام1403هـ، ص289- 297.

[11] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" (بالأردية) خطبة للإمام المودودي، مجلة "آيين"، منشورة في العدد الخاص بتفهيم القرآن، ص115.

[12] - "Islamic Perspectives" Studies in Honours of Mawlana Sayyid Abul A,la Mawdudi, Edited by: Khurshid Ahmad & Zafar Ishaq Ansari, P. 364

[13] - أبو الأعلى المودودي،"ترجمة قرآن مجيد، مع مختصر حواشي" (بالأردية)، إدارة ترجمان القرآن (برايويت) لميتيد، لاهور، ط10، 1992م.

[14] - المرجع السابق، ص310.

[15] - المرجع السابق، ص310- 312.

[16] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" خطبة للإمام المودودي، ص115.

[17] - "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي ، ص308.

[18] - المرجع السابق، ص314.

[19] - "تفهيم القرآن إيك كتاب انقلاب" للأستاذ خورشيد أحمد، ص14.

[20] - "في أي ظروف كتبت تفهيم القرآن" خطبة للإمام المودودي، ص115.

21 – الأستاذ خورشيد أحمد،"تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"، ص14.

22 – "الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم"، الأستاذ أليف الدين الترابي، ص313.

23 – "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"،ص19.

24 – "تفهيم القرآن" (بالاردية) الإمام أبو الأعلى المودودي، المجلد الأول، المقدمة، مكتبة تعمير إنسانيت، لاهور، ص20.

25 – المرجع السابق، ص20.

26 – محمد قسيم،"منهج المودودي في تفسير القرآن"، رسالة ماجستير قدمت في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية – إسلام أباد في عام 1989م، ص96- 99.

27 – "تفهيم القرآن"، المجلد الأول، ص11.

28 – الأستاذ أليف الدين الترابي ،"الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم"، ص329.

29 – الأستاذ سيد محمد علي إيازي، "تفهيم القرآن، إيك عصري وعمراني تفسير"، ص287.

30 – "تفهيم القرآن إيك كتاب انقلاب"، ص23- 24.

31 – المرجع السابق، ص24 -25.

32 – المرجع السابق، ص25- 29.

33 – "الأستاذ أبو الأعلى الإمام المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" الأستاذ أليف الدين الترابي، ص330- 353.

34 – المرجع السابق، ص435- 445.

35 – انظر كتاب "سفر نامة أرض القرآن" (بالأردية) للأستاذ عاصم الحداد.

36 – "ترجمة المودودي لمعاني القرآني الكريم"، د. مصباح الله عبد الباقي، بحث منشور في حولية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام أباد، العدد الخامس عشر والسادس عشر، لعامي 2007-2008م، ص11- 15.

37 – المرجع السابق، ص23- 47. و"منهج المودودي في تفسير القرآن" الأستاذ محمد قسيم، ص92- 94.

38 – "تفهيم القرآن كي أدبي حيثيت أو أهميت" (بالأردية) الأستاذ آسي ضيائي، مقال منشور ضمن العدد الخاص لمجلة "آيين" عن الإمام المودودي، ص103.

39 – انظر التفصيل في "الحرف القرآني في باكستان بين فكي الرحى"، د. محمد علي غوري، بحث ألقاه في الندوة شبه الإقليمية حول إدراج لغات الشعوب الإسلامية في آسيا في مشروع الحرف القرآني" نظمته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الأيسسكو) الدولية في الفترة من 5-7 نوفمبر 2008م في كوالالامبور – ماليزيا، ونشرته في كتاب الندوة الخاص. (والبحث منشور في الشبكة الدولية).

40 – "تمثيلات قرآني" (بالأردية) جمع فيه الأستاذ أختر حجازي الأمثال الواردة في تفهيم القرآن، مكتبة تعمير إنسانيت، لاهور،1982م.

41 – "تفهيم القرآن، إيك كتاب انقلاب"، الأستاذ خورشيد أحمد، ص29- 30.

42 – "تاريخ جماعت إسلامي" الشيخ أباد شاه بوري، ص214.

43 – "حديث أهل نظر"، مجلة "آيين"، العدد الخاص بتفهيم القرآن، ص266.

44 – المرجع السابق، ص262.

45 – المرجع السابق، ص277.

46 – المرجع السابق، ص286.

47 – المرجع السابق، ص247.